2

دروب أخواتي

لكنني استثناء بالتأكيد. بالمحصلة، يعتقد الناس أن معظم النساء اللواتي «يعتنقن الإسلام» يمكن التأثير عليهن بسهولة، يخضعن لعملية غسيل دماغ، أو أنهن يائسات ويحتجن إلى شيء يؤمنَّ به؛ ليعوضن الحرمان الذي يعانين منه؟ أو أنهن يفعلن ذلك من أجل رجل، للمحافظة عليه على أمل أن يحملن أطفاله. الشيء المؤكد أن العالم ليس مليئاً بالنساء الجميلات الذكيات، الناجحات في أعمال اخترنها بأنفسهن، ويعشن حياة اجتماعية نشيطة، واللواتي يتركن كل ذلك عن طيب خاطر لاعتناق الإسلام، ستكون مفاجأة للكثيرين عندما يكتشفون أن النساء اللواتي يعتنقن الإسلام هذه الأيام لسن من طينة واحدة، قصصهن أكثر تنوعاً وإثارة للاهتمام من أي أنماط جاهزة.

لماذا نقول لهم؟

المسلمون لا يتعبون أبداً من سماع قصص عن قيام أشخاص من أماكن بعيدة وثقافات مختلفة باعتناق الإسلام. يكون الأمر مثيراً دائماً عندما يتذكر المرء أن أشخاصاً من خلفيات مختلفة يتحدون في فهم مشترك لمعنى الحياة. ولأننا أخوات في الإسلام، وجزء من حلقة ضيقة، فإن تلك القصص الساحرة مألوفة تماماً بالنسبة لنا، إنها جزء من تاريخنا. بالنسبة لغير المسلمين، على أي حال، تبقى تلك القصص لغزاً غامضاً، برغم أن هؤلاء

نساء يقطعن دروبنا كل يوم، يعشن في حارتنا ويذهب أطفالهن إلى المدارس نفسها التي يذهب إليها أولادنا. أشعر أن الوقت قد حان لأفتح تلك الحلقة الضيقة. أريد أن أعرض ما تشرفت بأن أكون جزءاً منه خلال السنوات الست الماضية؛ حتى يمكن للآخرين أن يشاطروني عجائب رحلة روحية توحد الكثير من الناس من أعمار، وألوان، وأماكن وخلفيات مختلفة للغاية.

الجارات

الشيء الذي يربط النساء المذكورات في هذا الكتاب أنهن جميعاً نتاج هذا المجتمع. لقد ولدن فيه، تلقين العلوم بطرائقه، تشرّبن معتقداته وكن على مستوى توقعاته. كان هناك وقت، ليس ببعيد، لم يكن ممكناً رؤية نساء مسلمات يضعن «الخمار» في شارع أكسفورد أو طريق إدغار سوى العربيات. على أي حال، نظرة واحدة على الأخوات في هذا الكتاب ستدل على أن الوجه «خلف الخمار» في لندن المعاصرة لم يعد بالضرورة من الشرق الأوسط. منذ أصبحت مسلمة، التقيت نساء اعتنقن الإسلام من إنكلترا، وويلز وأسكتلندا، إضافة إلى أخوات سوداوات من إفريقية، والكاريبي والأمريكيتين، أخوات من الشرق الأقصى، الصين، ماليزيا وتايوان. التقيت حتى نساء اعتنقن الإسلام من بقاع بعيدة مثل نيوزلندا ـ نعم، كيوي حقيقية ـ وأستراليا. لم تعد النساء المسلمات ينتمين بالضرورة إلى ثقافة مختلفة، برغم أنه من السهل تعميم تلك الفكرة والترويج لها: «حسناً، إنها لا تشبهنا، أليس كذلك؟».

الحقيقة أن هذه المرأة قد تكون جارتكم، الفتاة التي ترافقها ابنتكم إلى المدرسة، المرأة التي كان ابنكم يأمل بالزواج منها، ربما تكون قد ترعرعت

في منزل مستقل أو شقة ضمن مبنى سكني لها إطلالة خلابة. ربما تستطيع التكلم بلغة فصحى أو بلهجة أهل لندن المقفّاة. ربما تستطيع دفع «صعلوك أشعث» للخجل بلهجتها العامية أو تتكلم الفرنسية، والإسبانية والإيطالية ـ دون أثر للهجة معينة. ربما تستطيع طهي أفضل شرائح اللحم وتحضير أشهى الفطائر المحلاة التي سبق أن تذوقتموها ـ ولن تعرفوا أبداً أنها حلال! إنهن نساء السمك والبطاطا المقلية، والأرز والبازلاء، والسباغيتي وسلطة الملفوف والجزر. إنهن نساء الأرز المفلفل، البايلا (أرز مع قطع اللحم والسمك والخضار)، المقالي، العجين بالخضار والحساء الشهي، لسن «تلك النساء اللواتي يأكلن الكاري طيلة اليوم». ومع وجود الكثير من النساء اللواتي يعشن في الغرب ويعتنقن الإسلام، من كل شرائح المجتمع، لم تعد الأحكام المسبقة القديمة راسخة كما كانت من قبل.

مسلمون دون جذور

على أي حال، ليس الغربيون غير المسلمين وحدهم من «يكتشفون» الإسلام. برغم أن معظم المسلمين بالولادة يترعرعون مع شكل ما من الإسلام في حياتهم، إلا أنه من الشائع جداً في هذا العصر والأوان وجود فتيات وفتيان يحملون أسماء إسلامية ويكونون غربيين مثل بيتر وجين تماماً. لفظ الجلالة الله جديد عليهم، والمعتقدات والفروض الإسلامية غريبة تماماً. هناك آباء يتخذون قراراً واعياً بتربية أبنائهم بعيداً عن الإسلام لأسباب شتّى. يريد بعضهم من أبنائهم الاندماج في المجتمع الذي يعيشون فيه والمضي قدماً، ويريد آخرون منهم التركيز على التعليم أو العمل بدلاً من «تشتيت انتباههم» بالدين، ولا يريد آخرون «تحميل» أبنائهم عبئاً

ثقافياً يعيقهم، وربما كانوا يشككون سراً بقيمة الإسلام في حياتهم وحياة أبنائهم. لهذا هناك نساء من والدين مسلمين في هذا الكتاب يذهبن إلى المدارس نفسها التي تذهب إليها نظيراتهن غير المسلمات، اللواتي يتمتعن بآداب السلوك نفسها، ويحملن القيم نفسها ويتعرضن للتأثيرات الثقافية نفسها. إنهن أيضاً نتاج هذا المجتمع واعتناقهن الإسلام ليس أقل غرابة أو توقعاً من أي امرأة غربية أخرى.

ترعرعت سارة في منزل مجرّد من أي تأثيرات إسلامية مهما كانت.

قالت لي: «لم يكن والدي مسلماً ملتزماً على الإطلاق. كان الشيء الوحيد الذي يتقيد به ومستمد من الإسلام أنه لا يأكل لحم الخنزير، لكن ما عدا ذلك، لم أسمعه إطلاقاً يتكلم حول الله أو الصلاة أو الصيام في شهر رمضان أو أي شيء آخر. كان ذلك شيئاً غريباً تماماً بالنسبة لي. كان والدي مفتوناً فعلاً بالثقافة الأوروبية: مقارنة بالفوضى في باكستان، كان معجباً بتنظيم المجتمع الأوروبي الذي يوافق ذهنيته. كان يحب الفن، والموسيقى، واللغات ويستمتع بالسفر إلى مراكز «الثقافة السامية».

بالفعل، كان تفاعل سارة الوحيد مع الإسلام عبر أصدقاء في المدرسة، وبرغم أنها كانت تعرف هويتهم المشتركة، إلا أنه لم يكن لديها أدنى فكرة عما تستلزمه تلك الهوية.

«أتذكر أنه كانت لي صديقة باكستانية تبحث عن هدية لشقيقها، وأنها وجدت خاتماً ذُكر لفظ الجلالة الله عليه».

سألتها: «ماذا يعني ذلك؟».

قالت لي: «حسناً، إنه اسم الرب. هذا ما نؤمن به نحن المسلمين».

شعرت بأنني: «آه، صحيح ...».

«كنت منفصلة تماماً عن هويتي الإسلامية. لم يسبق لي أن شاهدت مسلماً يصلي في حياتي من قبل، بالنسبة لي، كانت الصلاة تعني وضع راحتي اليدين معاً أمامي!».

بدلاً من الذهاب إلى المدرسة (صفوف لتعليم الأطفال تلاوة القرآن والقراءة والكتابة بالعربية) في المساء، مثل معظم الأطفال الباكستانيين، كانت سارة تذهب إلى الكنيسة ومدرسة الأحد مع فتيات الكشّافة.

ترعرعت هاجر في فرنسا، وانفصلت عن جذورها تماماً. لم تنشأ ضمن جالية عربية كبيرة كما هي حال الكثير من المهاجرين من شمال إفريقية إلى فرنسا، أو في جيوب ينجذب إليها جزائريون آخرون. الحرقي بربري جزائري قاتل إلى جانب الفرنسيين خلال حرب التحرير الجزائرية، ووالد هاجر كان أحدهم.

قالت لي: «ينشأ أطفال الحرقي فرنسيين؛ لأنهم لا يستطيعون غير ذلك حقاً، كما لو أن ليس لديهم أي حق بالهوية الجزائرية. كان والدي يبعدنا دائماً عن أي تأثير عربي، عشنا في مناطق كان الناس فيها فرنسيين تماماً. في منزلنا، لم يكن هناك توتر على الإطلاق بين هوية جزائرية وأخرى فرنسية: لقد ترعرعنا فرنسيين حقاً. لم أحظَ أبداً بصديقة حميمة عربية أو مسلمة، مطلقاً. كانت صديقاتي على الدوام كارين، إيفلين، إيزابيل: فرنسية، فرنسية، فرنسية».

لم يكن هناك أي تأثيرات عربية حولنا، ناهيك عن الإسلام الثمين أيضاً. «لم يكن هناك إسلام في منزلنا على الإطلاق، أو دين، برغم وجود عادات بربرية كان والداي يتبعانها مثل عقد القران والختان».

برغم أن والديها كانا من بنغلاديش، إلا أن جميلة نشأت في بيئة غير إسلامية تماماً أيضاً.

«ترعرعت في أسرة آسيوية كان ينبغي أن تكون مسلمة، لكنها لم تكن كذلك. لهذا كان اسمي جين واسم شقيقي غافين. بلى، جين وغافين!».

واجهت تلك النساء الإسلام بوصفه شيئاً جديداً، شيئاً غريباً، كما فعلت نظيراتهن غير المسلمات تماماً. لم يكن هناك شيء في خلفياتهن يجعلهن مسلمات ملتزمات. كان عليهن اكتشاف الإسلام بأنفسهن واعتناقه من جديد.

الكنيسة والمعبد

على النقيض مني، ترعرعت معظم الأخوات مع شكل ما من المعتقد الديني. تراوحت تلك المعتقدات من النصرانية الملتزمة إلى المتحررة، من الطاوية إلى اليهودية، من السيخية إلى الهندوسية، التقيت أخوات من كل خلفية دينية. بضع أخوات اشتركن في خلفيتهن الدينية معي.

مثل معظم نساء الكاريبي من جيلها، نشأت أم طارق نصرانية ملتزمة. تقول: «كان والدانا يخافان الرب دائماً، وكانا يعلّماننا دائماً أن نشكر الرب ونتعرف إلى مولانا؛ لهذا كان الخوف من الرب موجوداً دائماً في قلوبنا في أثناء نشأتنا».

نشأت أم محمد أيضاً مع تأثيرات دينية قوية: «ربتنا أمي نصارى: كنا نذهب إلى الكنيسة ومدرسة الأحد. كنا نتعلم دائماً أن نخاف من الرب، ونتذكر أن الرب يستطيع رؤيتنا. كانت تربية تقليدية في جزر الهند الغربية».

على أي حال، نشـأت عالية في عائلة غـير متدينة من جزر الهند الغربية، وهي حقيقة قد تكون أسهمت في موقف جدّها المتشدد والقاسي تجاه الدين.

«لم نكن متدينين، ربما لأن والد أمي كان سبتي (الانقطاع عن العمل يوم السـبت والإيمان بأن المسيح سيعود إلى الأرض)، وكان تابعاً متزمتاً لدرجة أن الأمر انتهى به بإبعاد كل أبنائه عن أي نوع من الدين مهما كان».

آمنـت مي لنغ بالرب منذ كانت صـغيرة جـداً: «انغرس الإيمان بوجود الرب في داخلي عندما كنت صـغيرة، منذ وعيت على هذه الدنيا». أمضت السنوات الأولى من عمرها مع جدّتها لأبيها، التي كانت تؤمن بقوة بمبادئ الطاويـة، وكانت تزور المعبد بانتظام وتصـلّي؛ لتجتمع مجدداً مع والديها اللذين كانا قد استقرا في المملكة المتحدة.

كان والداي طاويين لكنهما لم يكونا ملتزمين حقاً ـ كانت جدّتي منغمسة بذلك حقاً وقد حذونا حذوها ـ كانت قوية جداً. كنا نشارك في كل الطقوس فقط لإسعادها. على أي حال، لم أحب أبداً التماثيل في المعبد، بالنسبة لي، كانت زخرفة وليست رباً. كنت أشعر أن الرب في داخلي، ولم يكن بالتأكيد تلك التماثيل الذهبية».

على أي حال، حالما أصـبحت مي في بريطانيا وجدت نفسها مشدودة إلى تعاليم النصـرانية، ويعود سـبب ذلـك جزئيـاً إلى تعرّفها عليها في مدرسـة الكنيسة الإنغليكانية التي انتسـبت إليها. لكن فيما كانت تدرس اللاهوت في مسـتوى متقدم، اكتشـفت أن إيمانها اهتز بشدة مما تعلّمته عن الإنجيل ومصادره.

«صُـدمت وذُعرت عندما اكتشـفت أن الإنجيل، العهـد الجديد، مبتدع وأن النصرانية مثل مسـرحية هزلية. كان العهد الجديد مؤلفاً من فصول

وأجزاء، كما أن اللغة المستعملة لكتابة النصوص سيئة ... كان الأمر مثل إلقاء كتاب على الأرض وتبعثر كل صفحاته ثم إعادة لصقها معاً دون معرفة أرقام الصفحات. لم يكن يبدو منطقياً فحسب. كانت العديد من الفتيات في المدرسة بنات الكهنة، وكن يقفن خلال المناقشة الصفّية ويقلن: «برغم أن الإنجيل مبتدع، ما زلنا نتشبث بإيماننا، وما زلنا راسخات على هذا الدين». كان ذلك هو اليوم الذي نزعت فيه صليبي وقلت: «انسي هذا».

لكن برغم أن مي اتخذت قراراً واعياً بالتخلي عن المعتقدات التي نشأت عليها لاعتناق الإسلام، لم تفعل غالبية الأخوات ذلك: بقي معروفاً عنهن أنهن نصرانيات، هندوسيات أو سيخيات، الأديان التي نشأن عليها.

أطفال محرومون

فيما يرى الكثير من الناس أن «التحول إلى الإسلام» هو الملاذ الأخير، ربما يكون هناك شعور بوجود عوامل معينة، مثل طفولة غير سعيدة، وراء ذلك. أعرف أن ذلك، في حالتي، كان أبعد ما يكون عن الحقيقة، فقد استمتعت بطفولة ومراهقة سعيدة ومستقرة في زيمبابوي. لكن ربما يكون لأخوات أخريات قصص مختلفة يسردنها؟ لهذا السبب، طلبت من الأخوات أن يخبرني عن خلفياتهن وطفولتهن.

لم يكن مفاجئاً أن أكتشف أن بعضهن جئن من عائلات مستقرة من الطبقة الوسطى، مؤلفة من والدين وتتمتع بتقاليد قوية وآمال كبيرة. أخبرتني كلير، مثلاً، حول طفولتها الهادئة في مزرعة والديها في أيرلندا: «نشأت كاثوليكية ملتزمة في أيرلندا. كانت نشأة مثالية، نشأة كاثوليكية أيرلندية بيضاء، في كنف العائلة، مع الكثير من أبناء العم، والعمات

والعائلة الكبيرة. نشأت دون هموم ... أركض في الجوار، أجمع الأغنام وأمشي في الحقول ...».

قضت مي لنغ حياتها المبكرة أيضاً في بيئة ريفية، وإن كانت مختلفة تماماً عن المروج الأيرلندية.

«نشأت مع جدتي لأمي في مزرعة بتايوان، في قرية ريفية. بين الفينة والأخرى، كنت أذهب إلى الجبال؛ لأكون مع جديّ لأمي حيث كانت الحياة بسيطة حقاً: كان المرحاض في الخارج، في ساحة الدار ...».

عندما بلغت الرابعة والنصف من عمرها تقريباً، أرسل والداها يطلبان منها المجيء والعيش معهما في إنكلترا. لكن الحياة هناك بصفتها البنت البكر لوالدين صينيين تقليدين يعملان بجد كان لها تحدياتها.

«في البداية، كان التأقلم مع الحياة في إنكلترا صعباً قليلاً بالنسبة لي، لغة جديدة، ثقافة جديدة ولم يكن والداي يتحدثان بعض اللهجات التي كنت أعرفها. كان هناك روتين صارم مع أنني نشأت دون شيء شبيه، كان علي تناول الطعام والذهاب إلى السرير عندما يطلبان مني ذلك، فيما كانت مدللة كثيراً في تايوان. في إنكلترا أيضاً، كنت دائماً مع أمي وأبي؛ بينما في تايوان كنت مع جدتي وجدّي، هذا العم، تلك العمة وأبناء العم أولئك، «كان «الأم والأب» روتيناً لست معتادة عليه».

بعضهن، مثل سارة، نشأن في منازل يؤدي فيها كلا الوالدين أدواراً تقليدية.

«عندما تزوج والداي، لم يكن العمل مشكلة لوالدتي. كانا يستمتعان كثيراً، وفعلا كل الأشياء التي يقوم بها ثنائي أوروبي شاب. لكن عندما

أنجبت والدتي الأطفال، قال والدي لها: «حسناً، انتهى الأمر، ستبقين في المنزل مع الأطفال وتقومين بالطهي والتنظيف. مكانك في المنزل». ولم تكن والدتي تعرف ما ينبغي أن تقوم به. فجأة، انقلب إلى هذا الرجل الباكستاني التقليدي برغم أنها لم تكن تتوقع منه ذلك. لكن لم يكن هناك أي شك إطلاقاً بأنه أحبني وشقيقي. كان حنوناً جداً وأحبنا كثيراً. خصص الكثير من الوقت لأبنائه، حتى بعد أن انفصلا».

نشأت أخريات، مثل عالية، في كنف أمهاتهن فقط: «كلا والديّ نصراني لكني نشأت في عائلة والد واحد، أمي فقط، شقيقي وأنا. ليس لدي أي ذكريات سيئة عن طفولتي. لم تكن أمي شخصاً يضربنا أو يرفع صوته كثيراً. لا أتذكر أياً من ذلك خلال طفولتي».

بعد الإصغاء إلى أخوات يصفن تجارب طفولتهن، أدركت أن خلفياتهن لا تدخل ضمن أي نمط معين. لا يمكن القول: إن كل هؤلاء النساء جئن من منازل محطمة، أو كن نتاج غياب الآباء، أو فساد الأمهات أو الافتقار إلى النظام أو التحفيز. مثل النساء أنفسهن، كانت طفولاتهن متنوعة وتشمل كل أنواع التجارب. بالتأكيد، حطمت تجارب تلك الشابات الأسطورة القائلة: إن الإسلام محاولة الفرصة الأخيرة للهروب من خلفيات بائسة! لن يكون عادلاً أيضاً القول: إن كل من اعتنقن الإسلام كن أساساً يائسات يفتقرن للمؤهلات والطموح. في الحقيقة، كان التعليم بالنسبة للكثير من أهل الأخوات أمراً ذا أهمية قصوى. كما قالت لي جميلة: «كان التعليم مركز اهتمام حياة والديّ، لقد كان المنطلق والغاية. كان حصولنا على العلم هدفهما الأساسي وكل ما سوى ذلك ثانوي. أعتقد أن السبب في موقف والديّ أنهما جاءا إلى هنا من وراء البحار وأدركا أنه في سبيل

الوصـول إلى أي شـيء في هـذا البلد، ينبغي أن يكون المـرء محترفاً. لهذا كان التعليم كل شيء».

تم إرسال مي أيضاً إلى مدرسة خاصة مع توقعات بأن تبلي بلاءً حسناً، وإن كانـت لم تحصـل علـى دعم كبير مـن والديها. أخبرتنـي عن موقف والديها من دراستها ومسؤولياتهما.

«أرادني والداي أن أكون مثالية، أرتدي سـترة ليس عليها بقع، جوارب نظيفـة وحذاء لامعاً ... لكنهما كانا فعلاً مشـغولين دائمـاً بالعمل، وإدارة المطعـم. كانـا متحفزين للغايـة وأرادا أن ينجحا. ذلك جـزء من الثقافة الصـينية: عندما تموت، ينبغي أن تترك شـيئاً لأبنائك، لعائلتك، وإذا لم تفعل، تكون قد فشـلت عندها. حتى إذا كنت تحب أبناءك كثيراً، إذا كان عليك العمل اثنين وعشرين ساعة في اليوم وألا تراهم، سيكون ذلك الثمن الذي ستدفعه».

عاليـة، من جانـب آخر، لم تنجح في المدرسـة حيث وجدت نفسـها في مستوى التوقعات السلبية التي حملها الآخرون عنها وعن «نوعها».

قالت لي: «كنت إحدى «الفتيات السيئات» في المدرسة. التحقت بمدرسة أساسـية لم يكن فيها الكثير من الفتيات السـود؛ وكانت الغالبية بيضـاء، وكان هنـاك دائماً ذلك التوقع بأنكِ إذا كنت سـوداء، فأنتِ سـيئة. بدأت علـى نحو جيد، وهو ما أرسـلتني والدتي إلى هناك لأجلـه في المقام الأول ـ لأحقق شـيئاً لنفسـي. وبعد اتهامي باسـتمرار أنني أقوم بأشياء لم أكن أفعلها، بدأت أفعلها. وهذا ما آلت إليه الأمور ـ اكتسـبت لنفسـي سـمعة. وقـد كنا سـيئات فعلاً ـــ كنا نهرب من المدرسـة، ندخن، نزعـج الأطفال

الآخرين وكبار السن ونرسم على الجدران في كل مكان. تركت المدرسة في آخر يوم من الفصل الدراسي، ولم أعد إليها أبداً».

على أي حال، لم تنتبه إلى فداحة أعمالها سوى عندما حان وقت الامتحان فقط. لكنها عقدت العزم على إنقاذ ما يمكن إنقاذه من تعليمها عازمة على تحقيق شيء لذاتها.

«أردت الذهاب إلى الجامعة؛ لأنني شعرت بأنني قد أضعت الكثير من الوقت. حتى النهاية، كنت أدرك أن الوقت قد فات على الخضوع لأي امتحانات أو شيء من هذا القبيل. لكني أحببت الطهي عندما كنت في المدرسة؛ وبرغم أن علاماتي كانت سيئة في كل مادة أخرى، إلا أنني كنت أحصل دائماً على درجات جيدة في الاقتصاد المنزلي. كان لدي طموح بأن أصبح طاهية منذ عمر مبكر جداً؛ لهذا التحقت بكلية لدراسة ذلك».

برغم أن أم محمد بدأت تحب المدرسة وتجربة التعليم ككل، إلا أن المشكلات في المنزل بدأت تؤثر على موقفها من عملها.

«كنت الأولى على صفي دائماً، وأبلي بلاء حسناً في كل موادي، وفجأة، لم أعد أستطيع إنجاز فروضي. لم أكن أحب أن يُملي علي المعلمون ما ينبغي القيام به أو الامتناع عنه، وبدأت ألهو في الصف، وأهرب من المدرسة. كنت أذهب عادةً مع صديقة لي ونسجل اسمينا ثم نغادر دون أن نحضر أي دروس على الإطلاق. لم يكن ذلك يثير اهتمامي بسبب انشغال ذهني بالكثير من الأمور، لم أكن أستوعب ما يجري. في النهاية، انتهى بي الأمر بالخضوع لامتحان مستوى في إحدى المواد دون أن أستطيع اجتياز امتحانات المواد الأخرى، ولم أعد إلى تحقيق نتائجي السابقة أبداً».

التحقت مي بالجامعة؛ لتجهّز نفسها لإدارة عمل العائلة.

«بعد المدرسة، ذهبت للدراسة في جامعة نوتنغهام. تلقيت نصيحة من والديّ لدراسة علم يساعدني عندما يحين الوقت لأتولى إدارة العمل، لهذا اخترت إدارة الأعمال».

غادرت كلير أيرلندا لدراسة القانون في بريستول؛ وقرّرت سارة، بعد حصولها على إجازة في الجغرافيا، أخذ استراحة والسفر. عند عودتها، حصلت على درجة الماجستير في دراسات التنمية.

بعيداً عن النمط الجاهز الشائع عن افتقار أولئك اللواتي يعتنقن الإسلام للثقافة والكفاءة، هناك أخوات نجحن في بيئة مدارس عامة وأخريات فشلن، وتابعت بعضهن دراستهن للحصول على درجات ماجستير فيما غادرت أخريات الجامعة لتأسيس أعمال ناجحة. لا مجال، في هذا السياق، لتصنيفهن في نمط نموذجي، هؤلاء لسن نساء جاهلات ساذجات لا يستطعن اتخاذ قرارات مهمة.

فتيات عاملات

لم تحصل الكثير من الأخوات على تعليم عالٍ وحسب، بل عمل عدد جيد منهن بجد لتأسيس مهنٍ لأنفسهن أيضاً.

بعد التسرّب من الجامعة في فرنسا، جاءت هاجر إلى لندن وأمضت ست سنوات في بناء مهنة ناجحة في صناعة الموسيقى، وعملت في مجال التسويق لشركة تسجيلات.

«بدأت طريقي في شركات تسجيل وعلاقات عامة مستقلة ... عشت من أجل الموسيقى وفيها ومعها. أظن أنها كانت ديانتي. اشتركت مع شريكي،

مهندس صوت، في هذا الشغف ووجدت نفسي أدير التسجيلات في النوادي ومحطة إذاعية اجتماعية كنت أقدّم عبرها برنامجاً صباحياً في عطلة نهاية الأسبوع».

بالعودة إلى قصة عالية مجدداً، الواضح أنه برغم بدايتها المتواضعة، إلا أنها سرعان ما ميّزت نفسها طاهية كفأة ومتحمسة، وحصلت على عمل في فندق فخم فيما كانت لا تزال تدرس. في ذلك الوقت، كان طموحها أن تصبح رئيسة طهاة، وأن تدير في النهاية مطعمها الخاص. بعد الابتعاد قليلاً لإنجاب طفل واستعادة عافيتها من الإجهاد الذي نال منها، عادت إلى المجال الذي اختارته واستمرت بالتفوق فيه.

«عدت للعمل في الفندق، ووضعت طفلي في حضانة، وفقدت الكثير من الوزن واستمتعت بارتداء أفضل الملابس، وضعت قطار حياتي على السكة من جديد. في ذلك الوقت، كنت أبلي بلاء حسناً في عملي وشعرت بأنني أملك كل شيء: أنجبت طفلاً كان لديه كل ما يحتاجه، لم تكن الملابس مشكلة، وكنت أذهب إلى حفلات شراب في عطلات نهاية الأسبوع، وإذا أردت السفر، كنت أستطيع ذلك». كانت تعيش الحياة التي حلمت بها، أو هكذا كانت تعتقد.

كانت مي تعمل بجد أيضاً، وتوزع وقتها بين وظيفتها ومطعم والديها، وتضغط حياتها الاجتماعية ما بين هذا وذاك، وصفت وقتها لي: «كنت آتي إلى المنزل بعد عملي من التاسعة حتى الخامسة نحو الساعة السادسة، السادسة والنصف، أغير ملابسي، أتناول شيئاً بسرعة وأعمل في المطعم حتى الحادية عشرة والنصف ليلاً، أخلد إلى النوم، أستيقظ مجدداً

وأذهب إلى العمل، كانت تلك الطريقة التي أحصل بها على نقودي وأجعل والديّ سعيدين أيضاً. إذا أردت حياة اجتماعية، كنت أخرج للسهر بعد الانتهاء من العمل. كنت أعيش في وسط لندن وأقضي وقتاً رائعاً، تعرفت إلى الكثير من الأصدقاء وجنيت النقود ...».

أوقات طيبة وفتيات الحفلات

إضافة إلى العمل والدراسة، كانت تلك النسوة يتمتعن بحياة اجتماعية نشيطة، نشيطة للغاية لدى بعض منهن!

أخبرتني أم محمد عن بعض مآثرها: «عندما بلغت أنا وشقيقاتي سن المراهقة، لم يكن هناك شيء يستطيع إيقافنا. أحببنا الموسيقى، الأزياء، الجمال، الإثارة، الأدب، وكل تلك الأشياء. كانت تلك حقبة الثمانينيات وكل ما يشغل بالنا هو الطماقات (غطاء للساق من الجلد)، التنانير القصيرة، السراويل الفضفاضة والمجوهرات الاصطناعية. كنا نرتاد باستمرار حفلات الشباب وقد استمعنا كثيراً».

عندما غادرت أيرلندا للالتحاق بالجامعة في بريستول، وجدت كلير نفسها تكافح لإيجاد آخرين يوافقون على أساليبها الجامحة.

«كنت أتناول الشراب كل ليلة، وأتعاطى الممنوعات في عطلة نهاية كل أسبوع، لكني لم أستطع حقاً إيجاد أحد يجاريني في ذلك. كنت أقول آنذاك: «يا إلهي، من سيأتي إلى الحانة معي في الثانية بعد الظهر؟ لن يفعل ذلك أحد». كنت أريد خوض تلك التجربة الجنونية، لكني لم أقتنع بأنني أمرّ بها بنسبة مئة بالمئة. عندما كنت أعود إلى بلفاست لقضاء

عطلاتي والوجود مع أصدقائي القدامى، كنت أنغمس في ذلك النوع من الحياة تماماً».

كانت هاجر وأصدقاؤها أعضاء منتظمين في نوادي لندن، يعملون في هندسة الصوت، يرافقون نجوم الغناء والمشاهير الآخرين، ينظمون الحفلات والمناسبات الأخرى. كانت تستمتع أيضاً بارتياد المطاعم الفخمة واقتناء ملابس المصممين.

كان لدى أخريات، مثل سارة، هواجس أخرى مثل مشاهدة الأفلام في المنزل وزيارة المعارض الفنية. كانت سارة شغوفة بالسفر أيضاً، وحالما توافر لديها الوقت والمال للقيام بذلك، زارت عدّة بلدان أوروبية والأمريكيتين..

قالت لي: «كنت أسافر، أشاهد أشياء جديدة وأتعلم لغات جديدة، أحاول الاستفادة من تجاربي إلى أقصى حد».

برغم أن جميلة كانت من أبوين مسلمين، إلا أنها كانت تتمتع بحياة اجتماعية لا تحدّها قيود تقليدية.

«عشت حياة غربية الطراز تماماً، من جميع النواحي. لم يكن ارتداء الملابس الغربية مشكلة بالنسبة لي، وكنت أستطيع ارتداء ما أحب. لم يكن هناك قيود مفروضة عليّ وشقيقي. برغم قولي ذلك، إلا أننا وضعنا حدوداً بأنفسنا، ولم نكن متحررين تماماً، أعني أننا لم نكن نتعاطى أي ممنوعات أو شيئاً من هذا القبيل. كانت نشأتنا أساساً متحررة جداً».

المساواة والتمرد

كثيرات ممن اعتنقن الإسلام باحثات، باحثات عن المغزى، باحثات عن الحقيقة. نتيجة لذلك، ليس غريباً أن نجدهن ينجذبن إلى عدّة

إيديولوجيات مختلفة في طريقهن لاعتناق الإسلام، كما حدث في انجذابي للقومية السوداء.

كانت رحلة سارة نحو الإسلام مليئة بالتحولات والتوقفات، كما قالت لي: «كنت في ترحال مستمر، أحاول إيجاد نوع من الحقيقة، لم أتوقف أبداً عن المحاولة. كنت مقتنعة بضرورة وجود طريقة صحيحة للعيش، لكني لم أستطع معرفتها وحسب. بدأت في تلك المرحلة الاستكشاف وأصبحت شديدة الاهتمام بالسياسة. كنت مهتمة على وجه الخصوص بقضايا التنمية فيما يدعى «العالم الثالث» وقادني ذلك إلى الاهتمام بالاشتراكية. أيضاً، منذ كنت في السابعة عشرة تقريباً، أصبحت ناشطة في مجال المساواة بين الرجل والمرأة. كانت إحدى أسباب ذلك هي أنني أدركت، عندما فقدت والدي، أنني خسرت حب الرجل غير المشروط بعد أن كان قد كرّس حياته لي. أطلق ذلك الكثير من الأشياء في ذهني وبدأت أقرأ حول نظريات مختلفة عن المساواة. قرأت بلهفة كل الكتب، واكتشفت شير هايت، نعومي ولف، جيرمين كرير والأعمال الرائعة لسيمون دو بوفوار».

وجدت كلير نموذجها الخاص في التعبير عن نفسها في حركة شباب سرية تدعو للمساواة بين الجنسين، «رايوت غرلز» Riot Grrrls، وكانت دائماً «ثائرة ضد النموذج الآلي من الأشخاص»!

شرحت سبب إعجابها بتلك الحركة قائلة: «شدّتني غرلز؛ لأنني كنت أحب الموسيقى حقاً، وكنت أعزف على الغيتار الكبير مع صديقي الذي يعزف على غيتار صغير. وجدت بعض تسجيلات «رايوت غرلز» في محل لأحد الأصدقاء، وقد أعجبت بها في الحال. في ذلك الوقت أيضاً، كنت

مهتمة بالشعر ولهذا تفاعلت مع قصائدهم الغنائية كذلك. وكان هناك نوع من عدم المبالاة أيضاً، مثل قولهم: «لسنا بارعين في الغناء، لسنا بارعين في العزف على أي من تلك الآلات، ونقوم بذلك لأنه من يهتم؟». إنه ذلك النوع من التمرد الذي كنت أتكلم عنه».

ماذا الآن؟

لكن برغم كل التعليم، والمال، والأصدقاء والمرح، كان هناك شيء ما يزال مفقوداً في حياة هؤلاء النسوة. كانت بعضهن يدركن ذلك، فيما حاولت أخريات تجاهل الأمر، لكن دون أدنى شك، كان هناك خواء في مكان ما لا يمكن لكل الأوقات الطيبة في العالم أن تملأه.

كانت عالية تدرك في الواقع أن لا معنى لطريقة عيشها: «في السنة التي سبقت اعتناقي الإسلام، كانت معنوياتي منخفضة فعلاً. كان يبدو لي أنني أملك كل شيء، لكن كان هناك شيء ما يزال مفقوداً. كنت أفكر أنه لا بد من وجود شيء آخر في الحياة عدا ذلك. كان الرجال الذين يقودون سيارات البورش يعرضون اصطحابي هنا وهناك، لكن كل ذلك لم يكن يشدّني. كنت أشعر بأنني مثل الرجل الآلي في تلك المرحلة: تذهبين إلى العمل، تحصلين على تلك النقود، تنفقينها، تعودين إلى المنزل ـ لم يكن يبدو أن تلك الحياة تتجه إلى أي مكان. لهذا كنت أبحث عن شيء ما مدة طويلة من الوقت ـ أبحث عن أجوبة لأسئلة مثل: لماذا نحن موجودون؟».

أخبرتني أم محمد عن عودتها إلى المنزل بعد الحفلات والجلوس بجانب النافذة، تنظر من خلالها إلى السماء في الليل، تتساءل عما إذا كان هناك شيء آخر في الحياة غير الذي تعيشه، وعن الهدف الأسمى الذي تفتقر إليه حياتها.

حتى أسلوب حياة كلير الماجن بدأ يفقد سحره بعد مضي بعض الوقت. «خرجنا للاحتفال في إحدى الليالي وكان الجميع يتعاطى الممنوعات. لكن كل شيء كان يبدو مبتذلاً حينها. لم يكن يبدو مناسباً. عدت إلى المنزل ليلاً وشعرت بخواء كامل: لم يعد الأمر «يناسبني» بعد ذلك. كان كل شيء قد فقد بريقه وسحره. في ضوء النهار الخافت، بدا كل شيء مروعاً بالنسبة لي».

لدى أم طارق قصة مختلفة تسردها. بعد أن وصلت إلى الخمسينيات من العمر، وبعد كل أعباء تربية العائلة والعمل، بدأت التفكير مجدداً بالإيمان الديني الذي ترعرعت عليه.

«فكّرت: «ماذا إن مت؟». تكبرين وأنتِ تسمعين عن نار جهنم وتعرفين أن ذلك ليس مكاناً لطيفاً ينتهي المرء به. وتعرفين بكل تأكيد أنك ستموتين وتتخيلين ما سيحدث لك بعد الموت. بدأت التفكير بشكل جدّي في عبادة الرب». قادها ذلك في رحلة استكشاف، وحاولت إيجاد الكنيسة الحقيقية، تلك التي تعبد الرب حقاً.

في كل مرة، كانت هناك لحظة إشراق، لحظة من التفكير الصافي الذي يقود إلى طرح أسئلة، والتي تؤدي بآلاف الطرق المختلفة ـ من الاشتياق الروحي، إلى التجارب التي تغير الحياة، إلى البحث عن الحقيقة ـ إلى أجوبة ... أجوبة الإسلام.

التعرف على الإسلام

لم يكن تعرّف هاجر على الإسلام مخططاً أو متوقعاً. فيما كانت تعمل مهندسة للصوت في نادي للجاز، التقت شخصاً اعتنق الإسلام حديثاً

وأصبحت صديقة له. في مناسبات عديدة، عبّرت عن مخاوفها بشأن مدرسة ابنها الذي كان يبلغ من العمر ثلاث سنوات. كانت تريده أن يكمل دراسته بين أطفال ذوي تربية حسنة، لكن في الوقت نفسه، لم تكن تريد إرساله إلى مدرسة خاصة وأن «ينتهي الأمر مع طفل صغير مزعج في منزلي ليس لديه شيء مشترك مع والديه». اقترح صديقها أن تحاول إلحاقه بمدرسة إسلامية.

«فكّرت في البداية: «محال»! لن أجعله يتعرض لعملية غسل دماغ على يد هؤلاء القوم المتدينين!».

«لكن، بعد عدد من الأحاديث اللاحقة، قررت القيام بزيارة إلى المدرسة الإسلامية المحلية. استقبلتني إحدى الأخوات، المغطاة بالأسود بالكامل. وقفت هناك، مترددة حيال الاستمرار في الأمر، لكني شعرت بالفضول بشأن ذلك الصوت الذي رحّب بي من خلف الخمار. دُعيت للدخول وأرضت مديرة المدرسة، التي كنت أستطيع رؤية وجهها آنذاك، فضولي ثم غادرت وأنا أشعر بالراحة بعد أن علمت أنه لا يوجد أماكن شاغرة في الحضانة».

على أي حال، تلقت هاجر بعد أسبوع اتصالاً هاتفياً من المدرسة يخبرها بتوافر مكان شاغر، ويدعوها وابنها لإجراء مقابلة. بعد أن أقنعت نفسها أن ذلك سيكون مؤقتاً، سجلت ابنها وبدأ فارس الصغير الذهاب إلى حضانة إسلامية.

«لا أفهم حقاً ما جعلني أضعه في تلك المدرسة الإسلامية في النهاية. أفترض أنني اعتقدت أنه على الأقل لن يكون بصحبة أولئك الأطفال

الفظين الذين يشتمون ويصابون بنوبات غضب، وأنه سيكون في عهدة أولئك الناس المتدينين الذين يبدون لطيفين. لكني لم أكن أريده أن يعود إلى المنزل شخصاً متديناً، أردته فقط أن يتعلم آداب السلوك، وأن يكون فتى لطيفاً، وهذا ما كان».

بالفعل، بدأ فارس يحب مدرسته الجديدة ويعود إلى المنزل مع كل أنواع الحكايات المثيرة للاهتمام. لكنه كان يعود إلى المنزل أيضاً بقواعد وآداب سلوك إسلامية، وهو شيء لم تكن هاجر على استعداد لقبوله.

«كلما كان يخبرني عن شيء لا يجوز إسلامياً، كنت أقول له: «فارس، هؤلاء القوم لن يملوا علينا طريقة حياتنا. إنها الطريقة التي نعيش بها، وأنت تذهب للدراسة هنا، هذا كل ما في الأمر، نقطة انتهى». لكن في أحد الأيام، سمعته يتلو القرآن وبدا جميلاً حقاً. وعاد إلى المنزل يوماً ما وأخبرني عن قصة إبراهيم، عندما تم إلقاؤه في النار وجعلها الله برداً وسلاماً عليه. جلب معه إلى المنزل ذلك العمل الفني الذي عمل عليه لشرح القصة وقد كان جميلاً حقاً. ومن الطريقة التي أخبرني بها القصة، أستطيع القول: إنها قد أثّرت به فعلاً ـ وأثّرت بي». قاد ذلك هاجر إلى بذل جهود لمعرفة المزيد عما يتعلمه ابنها في المدرسة.

بدأت أيضاً قضاء وقت مع مديرة فارس وأطفالها، الذين كانوا رفاقه في اللعب. سرعان ما أخذت تحضر خطبة الجمعة في المسجد، وتتأكد من عدم وجود مواعيد عمل في ذلك الوقت.

«كانت الخطبة أيضاً ملهمة لي وجعلتها حدثاً أسبوعياً. كنت أذهب مرتدية ذلك المعطف المصنوع من الكتان وأضع وشاحاً من الحرير الشفاف يتناسب معه، وعندما كنت أعود إلى العمل، ممتلئة روحياً، كنت

أنزوي في مكان ما وأخلع تلك الملابس دون أن يراني أحد. كانت تلك تجربة صعبة كل مرة؛ لأنني كنت بدأت أستمتع بالراحة التي توفرها تلك الثياب. كنت أشعر كما لو أن لدي شخصيتين، هويتين وأنني أعيش حياتين. قررت مراقبة أسلوبي العيش واتخاذ قرار حول أيهما أكثر نفعاً وإرضاءً للذات. أخيراً، بعد مراجعة محاسن ومساوئ كل منهما، قررت أن أسلوب حياتي الجديد ـ دون شك ـ أفضل بكثير من الحياة التي اختبرتها حتى ذلك الوقت. كنت جاهزة للخروج من الشرنقة».

تعرفت أم طارق على الإسلام خلال بحثها عن الكنيسة التي تعبد الرب حقاً. بعد أن قررت أن تصبح أكثر تديناً، أخذت تطرح استفسارات عن كنائس مختلفة.

«تلقيت توصية باعتناق مبادئ كنيسة العنصرة (ذكرى نزول الروح القدس على الحواريين). ذهبت إلى هناك مدة من الزمن، وكانت الأغاني التي يصدحون بها ساحرة، وقلت: «نعم، هذه هي». لكني سرعان ما أدركت أن «لا»، هؤلاء الناس لا يعبدون الرب. كيف كان المسيح يصلي؟ لمن كان المسيح يصلي؟ هؤلاء الناس يصلون للمسيح، وليس للرب. لكن المسيح صلّى دائماً للرب، كما يقول الإنجيل، لـ «الأب». لهذا فكرت أن ذلك لا يمكن أن يكون صحيحاً. في الواقع، لم أشكك في النصرانية أبداً، وكنت أفكر أكثر في مصطلحات الكنائس المختلفة. قلت لنفسي: «لا بد أن الحقيقة في مكان ما هناك كيف أستطيع إيجادها؟»».

كان ابنها وكنّتها قد اعتنقا الإسلام آنذاك، وكما قالت: «انزعجت عندما أصبح ابني مسلماً؛ لأنني لم أسمع عن الإسلام من قبل. فكّرت أن ذلك غريب؛ لأنه لم يسبق لي أن سمعت عنه شيئاً. لا بد أنه شيء جديد».

«لهـذا كنت أقول لهما: «لا أعتقـد أنكما تمتلكان الحقيقة، وأعتقد أنها النصـرانية. إنها فقط مسـألة العثور على الكنيسة الصحيحة». كان ابني يقول لي: «ماما، أحدنا على الطريق الخاطئ».

قلت: «حسناً، لست أنا بالتأكيد».

«وبرغـم أنني كنت غاضـبة منـه، إلا أنه كانت تتملكنـي رغبة جامحة بمعرفة من لديه الحقيقة. لكن ما غيّر الأشياء حقاً بالنسبة لي كان عندما عـاد ابنـي إلى المنزل مع «كتاب ابن عباس». حسـناً، قرأتـه بذهن مفتوح وكان يقول: إن المسـيح لم يمت على الصـليب، ولأكون صـادقة، كانت تلك الطريقـة التي هداني بها الرب. جعلني ذلك أتوقف وأفكر. قلت: إن الرب يستطيع فعل أي شيء: لماذا سيدع المسيح، وهو نبي رفيع المنزلة، يموت تلك الميتة البشعة؟ وتابعت قراءة ذلك الكتاب وكان كافياً بالنسبة لي. لقد رفع الله الحجاب عن قلبي، وآمنت».

تعرفـت مـي على الإسـلام عن طريق أصـدقائها في الجامعـة، الذين اعتنق الكثيرون منهم الإسـلام عندما كانت في ديارها خلال السـنة التي انقطعت بها عن الدراسة. عندما عادت إلى الجامعة لرؤيتهم، سألوها ما إذا كانت مهتمة بالأمر.

«قلت: «لسـت مهتمة بهذا النوع من الأديان. إنه لا يناسـبني». كنت قد عرفت القليل عن الإسـلام في المدرسة، الأركان الخمسة، وذلك النوع من الأمور. لكن فيما عدا ذلك، كنت قد نسـيت كل شيء تماماً. ثم سألوني ما إذا كنت على دين ما، وما هي ديانتي. قلت لهم: إنني أؤمن بدين لكن ليس له اسم. وهكذا سألوني عنه».

قلت: «أؤمن بوجود رب، لكننا لا نعرف كيف يبدو، ليس لديه لحية بيضاء أو شعر أبيض أو أي شيء من هذا القبيل. يستطيع سماع أي شخص عندما يكون بحاجة إليه. يتمتع بقوة لفعل كل ما تريد».

«في ذلك الوقت كنت أمارس اليوغا؛ لأنني كنت أعاني من آلام شديدة في ظهري، ويقال: إن وضعية القمر هي أفضل شيء للظهر. وقال أصدقائي: «هل تعرفين شيئاً؟ عندما يصلي المسلمون خمس مرات في اليوم، يتخذون تلك الوضعية أيضاً».

«قلت شيئاً مثل: «لا، حقاً؟!».

«لهذا قالت صديقتي: إن ديني شبيه بالإسلام، طلبت منها ألا تكون سخيفة. لكننا بدأنا نتكلم عن الإسلام وبدا كل شيء يبدو منطقياً. وهكذا أخذنا نتكلم عن الإسلام، ليلاً ونهاراً، ولا شيء سوى الإسلام. لكنني بقيت أعتقد أن الإسلام لا يناسبني؛ لأنني لم أشعر بأنني مسلمة. ثم مرّر لي أحدهم ورقة عليها أسئلة: هل تؤمنين بإله واحد؟ (نعم). هل تؤمنين بالملائكة؟ (نعم). هل تؤمنين بالرسل؟ (نعم). ثم في نهاية الأسئلة هناك عبارة تقول: «إذا كانت كل الإجابات نعم، أنتِ مسلمة».

«شهقت: «آه، أنا مسلمة. يا إلهي، لا يمكن أن أكون مسلمة! سيقتلني والداي!». لكني كنت قد اتخذت قراري، وأدركت فجأة أن الأمر لا يتعلق بوالديّ آنذاك، كان يتعلق بمولاي عزّ وجل».

لا يرحب الجميع بالإسلام في حياتهم أو يقبلونه حالما يتعرفون عليه. كان دخول الإسلام إلى حياة جميلة في أثناء مراهقتها أقرب ما يكون إلى التطفل. كان شقيقها، الذي تحبه حباً جماً، بعيداً في الجامعة وعاد يتكلم عن الإسلام.

«تعرف شقيقي على الإسلام بالمصادفة، وكان ذلك ما حمله معه إلى العائلة عندما عاد إلى المنزل. بالطبع، اعتقدوا أنه مجنون بكل معنى الكلمة».

«في ذلك الوقت، مشيت مع التيار بسبب ما كان يعنيه شقيقي لي. كان مثل مستشار لي كان يمثل كل شيء في حياتي في ذلك الوقت وأتبع ببساطة كل خطواته. على أي حال، لم يكن ذلك شيئاً ترتاح له نفسي بسبب كل ما يتطلبه الأمر».

لأنها يافعة، شعرت جميلة بأنها ممزقة بين الارتقاء إلى المستوى العالي الذي يتوقعه منها شقيقها من جانب، وعيش الحياة التي اعتادت عليها من جانب آخر.

«عندما كان يوجد في المنزل خلال العطلات، كنت أؤدي دوراً مزدوجاً. كان الأمر يشبه وجود شخصين معاً: جميلة وجين».

لكن هذا الوضع لم يكن ليدوم طويلاً، وبعد مواجهة كبيرة مع والدتها بشأن ارتداء الحجاب، قررت الرحيل عن المنزل.

لا بد أنها فعلت ذلك من أجله!

دون استثناء تقريباً، إذا اعتنقت امرأة الإسلام في أثناء ارتباطها برجل مسلم، يكون هناك اعتقاد بأنها أصبحت مسلمة فقط لإسعاده، للحفاظ عليه، من أجله. على أي حال، كنت قد اكتشفت أن هذا عارٍ عن الصحة تماماً. في معظم الحالات، برغم أن الشريك قد يكون محفّزاً، إلا أن النساء أنفسهن يبحثن الدين ويدرسنه بشكل مستقل قبل اتخاذ قرار باعتناق الإسلام.

عندما التقت كلير غاريث في الجامعة، مثلاً، أخبرها أنه مسلم، وإن كان غير ملتزم. لكن في سنة ما، عندما عاد من الإجازة الصيفية، «دفعه الوقت الصعب الذي قضاه في تعاطي الممنوعات خلال الصيف إلى تنقية أفعاله ـ اكتشاف المزيد عن الإسلام ـ لهذا في الوقت الذي شاهدته فيه مجدداً، كان يغوص في تفكير جدّي وعميق. تكلمنا كثيراً عن الأشياء الروحية عندما اجتمعنا معاً، ثم بدأ ـ ببطء ـ بعد ذلك بتأدية فروض الإسلام. كان يتحدث قليلاً معي عن الدين، لكني لم أكن مهتمة حقاً، كنت قد خضت تجربة التفكير العميق بشأن الدين من قبل، وكان ذلك خلفي بشكل أو بآخر. كان موقفي: وإن يكن؟ آمن بما تريد، لكن لا ينبغي عليك المبالغة في الأمر. كان يشجعني على قراءة تلك الكتب، لكني لم أقرأها أبداً، لأنني شعرت بأن كوني كاثوليكية هو كل ما يهم وأنه لا بأس بذلك بالنسبة لي، ليس أن ذلك كان سلواناً كبيراً لي، لكن ـ مهلاً ـ هذا ما أنا عليه. لا أريد أن أكون أي شيء مختلف».

لكن غاريث تابع الحديث معها حول الإسلام، وشجعها على التكلم عن معتقداتها، وشرح لها المعتقدات الإسلامية.

«لأكون صادقة، كنت أرى أن الإسلام هو الحقيقة لكني لم أستطع التغاضي عن كل القيود التي يضعها أيضاً».

في زيارتهما الأولى إلى بلدة غاريث الأم، ذهبت كلير مع شقيقها لرؤية امرأة أخرى غيرت دينها، وأصبحت مسلمة أيضاً. كانت زيارة كارثية، وعلى متن القطار في طريق العودة إلى بريستول قالت له كلير: «اسمع، لست مسلمة، لن أصبح مسلمة وينبغي أن تفهم ذلك. ولا أريد التكلم عن ذلك مجدداً».

«وقال: «حسناً». وهذا ما كان لبعض الوقت، نحو ستة أسابيع».

لكن قبل أن يتكلما في الموضوع مجدداً، كانت كلير تفكر في الواقع بالإسلام وبأن تصبح مسلمة.

«حدثت بضعة أمور جعلتني أبدأ التفكير بشأن أسلوب حياتي التي كانت تعني لي الكثير. أعتقد أنني وقعت في حب النوادي الليلية والممنوعات لكني لم أتحدث إلى أحد بشأن ذلك كنت أحتفظ بكل شيء في داخلي. ربما كنت أشعر أن قبول كل ما كان يعرضه علي غاريث يعني الاستسلام في المعركة، كان لا يزال ذلك العناد موجوداً هناك. إنها جذوري الكلتية (سكان بريطانيا القدماء)، دون شك! على أي حال، كنت أعمل في مكتبة الجامعة في ذلك الوقت وقرأت بعض الكتب عن الإسلام التي كان قد تركها في غرفتي قبل وقت طويل. ثم، في إحدى الليالي، كان كل أصدقائي قد غادروا شقتي وكنت أجلس مع غاريث في غرفة الجلوس. وسألني بتردد شديد: «هل تعتقدين أنكِ مستعدة لتصبحي مسلمة الآن؟».

«والشيء الغريب أنني كنت مستعدة. وهكذا نطقت بالشهادة، شهادة الإيمان. لا يمكنني شرح السبب، لكن الله كان قد غيّر ما في قلبي. كنت مسلمة آنذاك».

تعرفت أم محمد أيضاً على الإسلام عن طريق شريكها، عبد الرحيم، والد طفلها.

«كنت أعرف أن الإسلام شيء يهتم به عبد الرحيم ـ اعتاد على الحديث عنه بين الفينة والأخرى ـ لكني لم أدرك أبداً مدى جدّيته. ثم، يوماً ما، كنت أسير على الطريق العام، مفعمة بالنشاط بعد إحدى جولات التسوق

التي أقوم بها صبيحة الأحد، وكان هو يسير بالاتجاه المعاكس. أخبرني أنه كان في المسجد وأنه نطق بالشهادة. لهذا كانت ردّة فعلي شيئاً مثل: «آه، حسناً. هذا ما تؤمن به». بعد أن أصبح مسلماً، اشترى لي قرآناً.

كلما قرأت أم محمد أكثر عن الإسلام، زادت قناعتها بأنه الحقيقة، لكنها كانت تكره التخلي عن أسلوب حياتها الصاخب، ولهذا قررت ألا تفعل شيئاً بشأن ذلك. على أي حال، عندما ولد ابنها محمد، قرر والده الالتزام بالتعاليم الإسلامية تماماً وبدأ يخبر أم محمد المزيد عن الإسلام، وعلّمها كيفية الصلاة.

«كان الأمر ما يزال مثيراً للاهتمام، لكني كنت خائفة من الإقدام على الخطوة. كنت قد بدأت أستوعب أن الإسلام يتطلب الكثير من الالتزامات، وكنت أخشى من عدم قدرتي على الوفاء بها. أيضاً، كنت أخشى من عدم وجود أحد مثلي، إن الجميع سيكونون كبار السن، يتكلمون البنغالية أو الأوردو أو العربية، كنت خائفة بالتأكيد من الإقدام على تلك الخطوة. لكني بدأت أصلي في ذلك الوقت. شاهدت أيضاً فيلم الرسالة، الذي يقدم قصة الأيام الأولى للإسلام، والذي أوضح لي الكثير من الأشياء التي كنت قد قرأتها في القرآن والحديث. وبعد شهرين من إنجابي للطفل، قرر عبد الرحيم الرحيل والذهاب للعيش في المسجد. لم يكن يريد الاستمرار في العيش بالطريقة التي كنا عليها، ولهذا انفصلنا. حطّم ذلك فؤادي؛ لأنني كنت أحبه، لكني تفهمت ما فعله؛ لأنني لم أكن مستعدة للتغيير بعد. بقي يأتي لزيارتنا، يوم الأحد، لرؤية محمد لكنه لم يكن يمكث ويقضي الوقت معي؛ لأننا لم نكن متزوجين. فيما يتعلق به، كان مسلماً آنذاك ولم يكن هناك شيء سيقف في طريق ذلك».

التقت أم محمد بعد ذلك بمجموعة من المسلمات الشابات، من أعراق وجنسيات مختلفة، واللواتي أجبن على الكثير من أسئلتها وقمن بدعوتها لحضور صفهن لتعلم العربية. بعد ذلك، وفي عيد ميلادها تلك السنة، خرجت بحثاً عن بعض الملابس كما جرت العادة والتقت مسلماً في كشك البخور حيث يعمل والد محمد عادة. أصيب بالدهشة عندما عرف أنها والدة طفل عبد الرحيم، ولم يكن انطباعه جيداً عندما سمع أنها تركتهما كليهما. بدأ يسألها عما تعرفه عن الإسلام وتفاجأ من فصاحة أجوبتها. اقترح عليها عندها الذهاب إلى المسجد للحديث مع الإخوة هناك. «سألوني عمّا أعرفه عن الإسلام وعن الله. ثم سألوني: «هل تؤمنين أن هذه هي الحقيقة؟»».

«وقلت إنني أؤمن بذلك. وقالوا: «حسناً، ما الذي تنتظرينه إذاً؟».

«لهذا فكرت حينها: «ما الذي أنتظره؟»». لم يكن هناك شيء يوقفني، سوى ارتداء ملابسي للسير حتى نهاية الشارع. لهذا سألوني ما إذا كنت أعتقد أنني مستعدة لأن أكون مسلمة».

وفكّرت: «لماذا لا أنطق بالشهادة الآن؟». وكان ذلك ما فعلته.

التقت عالية أحمد في قمة نجاحها المهني وحياتها الاجتماعية الحافلة بالنشاط. لكن اعتناقه الإسلام في الأيام الأولى من علاقتهما كان أكبر اختبار لها، ومدخلاً حلواً مراً إلى الإسلام. كان أحمد قد اصطحب ابن عالية، جميل، إلى طبيب الأسنان لكنه تأخر عن العودة إلى المنزل أكثر من أربع ساعات. أصيبت عالية بقلق شديد.

قالت لي: «ثم عاد مع ابتسامة كبيرة رائعة على وجهه، أتذكرها جيداً، فقد كان وجهه مشرقاً».

قلت: «أين كنت؟ لقد قلقت كثيراً».

وقال: «أصبحت مسلماً». بتلك السهولة. كان قد التقى أخاً في الحديقة وتكلم معه عن الإسلام. كان مقتنعاً تماماً حتى إنهما ذهبا إلى المسجد معاً ونطق بالشهادة. أصبت بالصدمة. كانت تجتاحني كل أنواع المشاعر».

سألته: «ماذا تعني بأنك قد أصبحت مسلماً؟ لقد ذهبت إلى طبيب الأسنان، لتصرخ عالياً، وتقول لي الآن: إنك مسلم».

قال: «استمعي إلى هذا الشريط، استمعي إلى هذا الشريط!»، ووضع شريطاً لتلاوة القرآن. كان يبدو بالنسبة لي مثل موسيقى آسيوية غريبة. كان مفعماً بالنشاط، ولم يتكلم عن شيء سوى الإسلام. كان الأمر يشبه اختفاء الشهور الستة الماضية خلال بضع ساعات. شعرت بأنه لم يعد هناك شيء مشترك بيننا».

«وقلت له: «لن يجدي هذا نفعاً».

«باكراً في صبيحة اللاحق التالي، ذهب إلى المسجد ليصلي. بعد ذلك، بدت كل الأشياء الإسلامية التي كان يقوم بها أكثر غرابة بالنسبة لي. كان الأمر يبدو كما لو أن أحداً قد اختطفه، أخذه بعيداً في مركبة فضاء وأعاده مجدداً على هيئة ذلك الغريب. كنت أشعر كما لو أنني أواجه شخصاً مختلفاً تماماً. كان متعلقاً بالمسجد، وكان يوجد هناك عملياً طيلة الوقت ويتعلم الكثير من إخوانه. كان يعود إلى المنزل ويحاول نقل ذلك لي، لكني كنت أشعر برغبة في الصراخ. ثم بدأ يقول: إنه لا يستطيع القيام بأشياء معينة لأنها ... كان يستعمل هذه الكلمة «حرام»،لم أعد حتى أفهمه في ذلك الوقت! بدأ يقول لي: إنني لا أستطيع ارتداء تلك التنانير، وإنه لا

يمكنني ارتداء تلك الملابس ولم أكن أستسيغ ذلك. أتذكر أنني حزمت حقائبي ووقفت قرب الباب وقلت: «لا يمكنني القيام بهذا. لست مستعدة لذلك. لا يمكنك أن تصبح مسلماً ثم تتوقع مني الحذو حذوك».

«أيضاً، كنت أعرف فتاة سوداء اعتادت أن تغطي وجهها وكانت تبدو غريبة لنا. كنا نقف هناك مشدوهين، ننظر إليها، لأنها كانت الشخص الوحيد الذي أعرفه في العالم ويرتدي تلك الملابس. وفكّرت حينها: «هل تريد مني أن أصبح على تلك الشاكلة؟ محال!».

«لكنه أقنعني بعدم الرحيل وتكلمنا مطولاً. دعاني للذهاب إلى المسجد. اشترى لي وشاحاً وقال: إنه ينبغي بي وضعه على رأسي لإظهار الاحترام للمكان. أتذكر أنني أمسكت به تحت ذقني، وعندما وصلت إلى هناك، قالت إحدى الأخوات: «لماذا لا تثبتينه بدبوس؟ سيكون ذلك أسهل ...». ووضعت دبوساً لتثبيت حجابي. ثم سألوني ما إذا كنت مسلمة، وقلت: لا. وعندها بدأنا الحديث. وبدأت حضور الكثير من المناسبات الإسلامية؛ نظراً لوجود شيء ما في كل يوم، محاضرة، سوق أو شيء من هذا القبيل».

«ثم ذهبنا في يوم ما إلى محاضرة إسلامية في واحدة من المدارس المحلية، وكانت مثيرة للاهتمام حقاً. تكلمت إلى العديد من الأخوات في ذلك اليوم وشعرت بأنني موضع ترحيب ومرتاحة بينهن. عندما كنا ننتظر لنغادر، دخلت في حديث مع أخت وانتهى بي الأمر أقول لها: «أعتقد أنني ربما أرغب بأن أصبح مسلمة».

«بعد بضعة أيام، كنت في المسجد وقلت: «أريد النطق بالشهادة الآن». وهكذا تم اصطحابي إلى الطابق العلوي ونطقت الشهادة، وكانت كل الأخوات سعيدات جداً، كان الأمر مثل حفلة كبيرة».

كما رأينا، يحفّز الرجل أحياناً المرأة على اعتناق الإسلام. لكن من النادر أن نجد امرأة لم تدرس الدين بنفسها، وتكافح من أجل ذلك، وأخيراً، تقبل به من تلقاء نفسها.

غسيل الدماغ والإكراه

هناك شيء ربما تشترك به الكثير من قصص أخواتي وهو دور التساؤل، القراءة والدراسة في اتخاذهن لقرار اعتناق الإسلام. هذه نقطة مهمة ينبغي ملاحظتها؛ لأن الكثير من الناس، خاصةً الوالدين، يتجهون للتفكير بأن الشباب الذين يغيّرون دينهم يمرون عبر عملية غسيل دماغ، مما يقود أخيراً إلى إرغامهم على النطق بالشهادة. درست معظم الأخوات تفاصيل الإيمان قبل أن يلزمن أنفسهن به، وبالنسبة للكثيرات منهن، كان الدليل الفكري والديني هو الذي أقنعهن أخيراً بصوابية الدين.

عندما أصبح عبد الرحيم مسلماً، كانت أم محمد ما تزال تستمتع بحياتها كثيراً، «انغماس في الملذات، حضور الحفلات، الشكل الحسن، المجيء والذهاب كما أريد». قراءتها للقرآن أول مرة لم تقرّبها قيد أنملة من الإيمان. بالفعل، لم يتغير شيء حتى ابتاع لها شريكها كتاب الحديث، أقوال النبي محمد ﷺ، وبدأ الأمر عندها يشد انتباهها.

«قراءة كتاب الحديث ذاك أثّر بي. جعلتني القراءة حول أركان الدين المختلفة أفكّر: هل يبدو هذا صحيحاً؟ ... يمكنني الغوص فيه».

«ثم قرأت القرآن كله مجدداً وشدّتني حقيقة «وحدانية الله»، وقصة رفع المسيح وليس صلبه ... ثم حصلت على «كتاب ابن عباس» الذي أثّر

بي بالطريقة نفسها. وبعد قراءة الكثير من الكتب، بدأت أشعر بقلبي أن الإسلام هو الدين الصحيح».

بالفعل، كانت القراءة هي التي دفعت هاجر لتعلم المزيد عن الإسلام، بعد أن أخبرها ابنها قصة النبي إبراهيم والنار.

أوحى لها ذلك بشراء كتاب عنه، وبدأت القراءة عن الأنبياء وعن حياة آخر النبيين محمد ﷺ أيضاً. وجدت كل ذلك مذهلاً وبدأت تزور مكتبة محلية بانتظام، متلهفة لمعرفة المزيد. أم طارق أيضاً وجدت أن كل شكوكها تتلاشى بعد أن قرأت «كتاب ابن عباس». كانت كلير أختاً أخرى قرأت عن الإسلام سراً فيما كانت تعمل في مكتبة جامعتها، دون أن تُطلع غاريث على أنها بدأت أخيراً تهتم بالدين.

في حالة جميلة، لم تستطع الالتزام بالدين بشكل كامل حتى بادرت من تلقاء نفسها وأمعنت التفكير بالأمر حقاً. بعد الهروب من المنزل وقيام شقيقها باصطحابها للعيش مع آسيا وسراج، وهما شخصيتان محترمتان جداً من الجالية المسلمة جنوب لندن، تتذكر موقفها قائلة: «أعتقد أن أي شخص التقى بي في ذلك الوقت وجد أن التعامل معي صعب جداً. لم يكن أحد يستطيع أن يقول لي أي شيء، خاصةً حول الدين، كنت متعجرفة جداً بشأن ذلك. لم يكن أحد يستطيع الجلوس معي وأن يقول لي: «ما هو رأيك بهذا الخصوص؟»، أو «الإسلام يقول هذا، ما هو رأيك؟». لم يكن الأمر يصل حتى إلى ذلك الحد. كنت أخرج من الغرفة بكل بساطة.

«علـى أي حـال، كانت الأشـياء الرقيقة هي التي تؤثر بـي، تعمل على تشـكيلي، وتجعلنـي أكـثر ليونة تجـاه الإسـلام. طبيعة آسـيا، أخلاقها، الطريقة التي تعاملت بها معي، الطريقة التي كانت تتعامل بها مع أطفالها، ومع الأشخاص الآخرين».

بدأت جميلة بزيارة سـراج في المستشـفى دون أن يعـرف أحد آخر. في إحدى تلك الزيارت، ألقت أخيراً نظرة صادقة على نفسها وحياتها.

«قال لي شيئاً ذات مرة: قد يبدو الأمر غريباً حقاً وغير ذي صلة، لكنها كانت بالتأكيد نقطة التحول في حياتي».

سألني: «ما الذي تريدينه؟».

«قلـت له: «ليس الأمر أنني لا أؤمن، لأنني أؤمن أنه لا يوجد سـوى رب واحد فقط وأن محمداً هو خاتم الأنبياء. لكني فقط لا أسـتطيع القيام بما عدا ذلك ... لا يمكنني وضع ذلك الشيء على رأسي، لا يمكنني القيام بما تبقى، ولا أريد القيام بما تبقى، أريد حريتي. أريد أن أكون قادرة على فعل هذا، والقيام بذاك ...».

«فيما كان يصـغي السمع، بدأ يجلس في السرير ونزع قناع الأوكسجين الذي كان ينبغي أن يضـعه بشكل دائم. كان ضعيفاً للغاية، وفي حالة يرثى لها حقاً».

بـدأ يقـول: «انظـري إلي، الموت يدنو منـي. وقتي محدود. ربما أسـتطيع التحدث إليك الآن، وربما لا أستطيع التحدث إليكِ مرة أخرى في الغد...».

كانت لرؤية صديقها ومستشارها قريباً جداً إلى الموت تأثير عميق على جميلـة، كلما أمعنت التفكير بالأمر، كلما بدا كل ما تتشـبث به بلا معنى.

يقـال دائماً: إن الموت يمنح المـرء فهماً جديداً للحياة، وكان ذلك ما حدث مع جميلة.

«منذ تلك اللحظة، قررت أنه لم يعد بإمكاني الاستمرار بطريقة العيش تلـك، وأنه ليس لدي وقت للقيام بذلك. لقد هـزّني ذلك كله. وهذه المرة، هزّني في الصميم؛ لأن الأمر كله كان متعلقاً بشقيقي قبل ذلك، لكنه أصبح آنـذاك شـيئاً جعلني أدرك ذاتي وكان ذلك هو الفـرق. كان ذلك الإدراك مهماً جداً بالنسـبة لي؛ لأنه طالما كان هناك شـخص يحاول تكريسـه في داخلك، ستشعرين بأنكِ تتعرضين للضغط وأنكِ مرغمة على القيام بما لا ترغبين به. يسـتمر ذلك حتى يحين الوقت الذي يمنحك فيه الله الهداية، وعندمـا يفعل ذلك، ينتهي الأمر، وقد انتهى حقاً. كان اليوم اللاحق العيد (يحتفل به المسلمون)، وبدأت الصلاة، وارتديت ملابس غطتني بالكامل، مع الحجاب، النقاب وكل شيء آخر سجدت برأسي أولاً. فيما يتعلق بي، لم يكن هناك وقت أضيعه. كان إيماني وعقيدتي قويين جداً، ولا حدود لهما. وأنا سـعيدة، أنا سـعيدة؛ لأنني قمت بالأمر على تلك الشاكلة؛ لأنني إن لم أصـل إلى تلك المرحلة مرة أخرى، فسـأعرف على الأقل أنني كنت هناك مرة في حياتي. كان ذلك قدري وأنا سعيدة به».

لا يمكن تصـديق قصـص النسـاء الغربيات اللواتي اعتنقن الإسلام بسـهولة؛ لأنها تخالف الأفكار الجاهزة سلفاً للكثير من الناس: أن طريقة الحيـاة ومنظومـة المعتقدات الغربيـة متفوقة كثيراً على أي شـيء يقدمه الإسـلام، أو أي منظومـة معتقـدات أخـرى. يتسـاءل الناس، سـراً، عن السـبب الذي يدفع بامرأة للتخلي عن «حريتها» الغربية مقابل، كما يرون، حياة إذعان وقيود، أعتقد أن هذه القصص تخصنا جميعاً. هذه القصص

جزء من تاريخنا، بصفتنا أشخاصاً غيّروا دينهم، كمسلمات، كنساء، كأناسٍ يعيشون في الغرب، فصول مختلفة منها تخص كل واحدة منا.

عندما أقرأ القصص التي جمعتها، أتذكر قيمتها: إنها تدل على أن الإسلام عام للجميع. ويظهر التنوع الكبير في خلفيات وتجارب الحياة التي تميّز الأخوات في هذا الكتاب أن الإسلام يناسب أي شخص. لا يمكن تصنيف الأخوات ضمن أي قالب، أو أي شكل جاهز. لكل منهن شخصيتها الفريدة الخاصة بها، ورأيها المستقل. إنهن ناشطات في مجال حقوق المرأة، قوميات إفريقيات، ثائرات سراً على السلطة القائمة، نجمات موسيقى، متمردات روك، ملكات ملاهٍ، مواظبات على الذهاب إلى الكنيسة، مصممات، لاعبات، عارضات، مغنيات، عاملات، طالبات ماجستير، مسلمات ثقافياً، نصرانيات، سيخيات، ملحدات، من كل خلفية عرقية ومن كل الأعمار.

والشيء غير المتوقع على الإطلاق أن الإسلام استطاع الوصول لكل واحدة منهن، واستقر في قلوبهن وخاطب كل واحدة منهن بطريقة شخصية، ومنحهن الأجوبة التي كن يبحثن عنها وغيّر حياتهن إلى الأبد.